

جان شرف: منهجيته في كتابة التاريخ

عبد الرؤوف سنو

جان شرف، الباحث والمؤرخ والعالم، ومدرسة التأريخ الاجتماعي توأمان. منذ أن بدأ رحلته مع التأريخ، رفض جان شرف مدارس التأريخ الكلاسيكية التي تعاطت مع الأحداث بشكلها الظاهر، أو اقتصرت على الحروب والأمراء والولاة والأبطال من الشخصيات والمعروف من المؤسسات، ما جعل الإنسان، كفرد وجماعة، على هامش التاريخ. فالتأريخ الاجتماعي، وفق رأيه، هو الذي يفتح على العلوم الإنسانية ويستعين بطرق البحث فيها ويتكامل معها، وهو الذي يتخطى السياسة والشخصيات والأحداث ويعمل على استيعاب كل فئات المجتمع ويتناول مختلف مجالات الحياة العامة والخاصة والأسرة والأرض والطبيعة والبيئة القروية والطائفية والتقاليد، كحالة تاريخية تتقاطع فيها عوامل عديدة سياسية واقتصادية ودينية وجغرافية وديموغرافية ونفسية وغيرها لتنتج الواقعة الاجتماعية، التي يراها عرضة للتقلبات والأحوال عبر الزمن، تخضع للدرس والقياس والمقارنة وفق روحية المنهج الإحصائي، بهدف دراسة الفئات الاجتماعية وتحديد نوعية العلاقة بينها ومدى تأثيرها بالعامل الاقتصادي. كما أن تحليل الإحصاء الديموغرافي، يتيح للباحث معرفة طرق عيش البشر ومفهومهم لأنفسهم وتغيرات الخصوبة وطول العمر وتوزيع الكثافات السكانية، كما تعاقبت عبر الزمن. فيطالب بالتأريخ الاجتماعي والقيام بأبحاث تهتم بالديموغرافيا وطرح أسئلة تتعلق بالثقافة والجغرافيا البشرية، ودراسة كل جماعة على حدة استناداً إلى المصادر المحلية. لكنه يحذر في المقابل من الاعتماد الكلي على المصادر الأجنبية والعربية الكلاسيكية قبل تمحيص أخبارها من خلال منهجية تطبيقية فيها الكثير من الخلدونية.

وعلى ضوء ما تقدم، مكنته منهجيته الرصينة من تفحص مسائل التعددية المجتمعية في تاريخ لبنان الحديث والمعاصر، القائمة، وفق رأيه، على ثنائية اثنية وحضارية وتمايز اجتماعي وجغرافي، وكذلك تفحص البعد الإيديولوجي المرتبط بهذه التعددية وبالكيان السياسي ورقعته الجغرافية، الذي قد يبرر للفرد أو الجماعة سلوكهما وأسلوب التصرف، حتى العنف (العمل، 7، 1977، ص 32). وهذا ما جعله يُطلق الصوتَ عالياً بالدعوة إلى تجديد التأريخ اللبناني عبر نقد الإيديولوجي منه في التأليف الأكاديمي، والمدرسي الذي يُبقي المجتمع في حالة نزاعية مع نفسه ومحيطه، مستبعداً صواب اعتماد كتاب مدرسي موحد، نظراً للإيديولوجيات المتصارعة وحالة التعايش المهتز الذي يراوح حدي النزاع والوفاق. من هنا، يُعطي حيزاً واسعاً في مؤلفاته ومقالاته لمسائل التنظير والاستنسابية والفنوية والانفعالية والتعميم، ولانعكاس الأزمة المجتمعية على التأريخ الإيديولوجي. فيقول: "في غمرة هذا الجدل، فقد الماضي صفته الزمنية، وبات الإنسان فيه معاصراً لكل حادث أو طارئ، لا بل ألبس هذا الإنسان من الصفات وأعطي من النعوت وصدرت في حقه

الأحكام وتناوبت عليه الإيديولوجيات تبعاً لظروف المكان والزمان ولمؤثرات البيئة المجتمعية ومخلفات التراث".

لقد جمع جان شرف آراءه هذه في أطروحته التي نالها من جامعة الروح القدس عام 1993، ونشرت عام 1996 باسم "الإيديولوجيا المجتمعية، مدخل إلى تاريخ لبنان الاجتماعي"، وفيها أرخ لعهدي الإماراتين المعنية والشهابية. والكتاب هو عبارة عن عرض ونقد لمختلف المفاهيم التاريخية، فيدرس الطوائف وعقائدها وإيديولوجياتها ونظرة كل جماعة إلى نفسها، وإلى اقتصادها وقياداتها الدينية وهرمية السلطة فيها وديموغرافيتها وحراكها ونزوحها وسلوكها الداخلي وحدود اجتماعها السياسي وعلاقتها بمحيطها، مستخدماً الإحصاء الاجتماعي والجدول والبيانات والرسوم.

لتفسير الإيديولوجيا المجتمعية، ينطلق جان شرف من حرب لبنان بين عامي 1975 و1990، التي كانت هاجسه بالتأكيد من خلال نشاطه الحزبي وإسهاماته الفكرية في مجلة "العمل" وغيرها. فيقتضى أزمة الحاضر (حرب لبنان وتدايعاتها إلى ما بعد اتفاق الطائف عام 1989) في الماضي، ويشرح الجذور التاريخية للتعددية المجتمعية (المسيحيون والمسلمون اليوم، والموارنة المسيحيون والدروز بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر). فيصوغ نظرية حول غياب اندماج مجتمعي بين الطوائف، حيث ظلت العلاقات في ما بينها ذات طبيعة شكلية. فوجد التعايش السياسي، الذي يُطلق عليه الاجتماع السياسي، والعلاقات الاقتصادية بين بلدان الجبل، وخاصة بين موارنة كسروان والشوف الدرزي، في حين غاب التعايش المجتمعي. وفي رأيه، فإن محاولة حقيقية في اتجاه "مجتمع الدولة"، بدأت في عهد بشير الثاني، لكنها أجهضت عقب سقوطه وإلغاء نظام الإمارة، فبقي التعايش السياسي تعاقدياً داخل التعددية المجتمعية في عهد المتصرفية، عاكساً تركيبة مجتمع الجبل، حيث حافظت الجماعات على خصوصياتها فيه. ويخلص إلى أن هذه التعددية (التعايش المجتمعي) لم تؤد إلى ظهور هوية وطنية في القرن العشرين، وفي الثمانينات من القرن المذكور، بقي شرف على رأيه في عدم وجود أية حظوظ لظهور هذه الهوية الوطنية. وفي ظل أحداث السنوات القليلة المنصرمة، أضحت هذه الهوية الوطنية، مجرد سراب. ويعزو السبب في ذلك إلى الطائفية، التي يسميها "العقدة"، فيرى أنها ليست الانتماء إلى دين معين، بل إلى إيديولوجيتين سياسيتين اندرجتا تحت العروبة، التي ينتمي إليها غالبية المسلمين، والثانية اللبنانية، وهي الاتجاه الاستقلالي الماروني. فيعطي أمثلة على تفسيراتهما لمسائل تاريخية، كدور فخر الدين والإمارة في العهد الشهابي، وتطور الموارنة والدروز، وسياسة العثمانيين والدول الأوروبية وإنشاء لبنان الكبير، وتقسيم بلاد الشام، ولبنان المستقل، ولبنان قبل حرب عام 1975 وخلالها.

وسط ذلك، يرفض شرف المقولات الإيديولوجية التي تجعل لبنان مخلوقاً مصطنعاً خلقه الأوروبيون، فتمحو خصوصيته التاريخية وتدمجه بمحيطه العربي-الإسلامي. وعلى الرغم من كل شوائب المرحلة بين عامي 1943 و1975، يرى شرف أنها حققت، بفضل التسوية بين المدرستين العروبية واللبنانية، قدراً من الديمقراطية والحرية الفكرية والسياسية والغنى الثقافي والتطور العلمي والازدهار الاقتصادي، فكانت انتصاراً للعقل البرغماتي على العقل الإيديولوجي النظري. وعقب حرب السنتين بين عامي 1975 و1976، دعا جان شرف، أثناء الجدل الحاد حول لبنان ما بعد الميثاق الوطني، إلى الاعتراف بالتعددية الحضارية مقترباً من الفيدرالية. وفي مجلة العمل الشهري، طالب بتخصيص الرئاسة الأولى للمسيحيين من دون حصرها بالموارنة، وإعطاء الرئاسة الثانية والثالثة للمسلمين من دون حصرها بطائفة معينة، معتقداً أن ذلك يساعد

على التقرب من العلمنة ويخفف من حدة الولاء المذهبي ويقرب من الولاء الوطني، لكنه اشترط أن يرتبط هذا بتغيير في الذهنيات السائدة آنذاك وتغليب وظيفة الدولة والقوانين على الارتباط بالزعامات المسيطرة، وهو أمر لم يتحقق حتى اليوم (العمل 5-6، 1977، 125)

وانطلاقاً من منهج تجريبي يقوم على تطبيق مفهوم التاريخ الاجتماعي على الأسرة بمفهومها الضيق وعلى الجماعة بمفهومها الأوسع، وضع جان شرف مؤلفين اثنين بين عامي 1997 و2001، الأول حول آل عقل شديد، مبرراً ذلك بأن تاريخ الأسر يشكل المدخل لنقل التاريخ السياسي والإيديولوجيات التي تتنازع تاريخ الوطن، إلى التاريخ الاجتماعي الذي يتمحور حول سيرة الناس وتطلعاتهم ومعاناتهم في المدى الزمني الطويل. أما المؤلف الثاني، فيتناول فيه الشعب الأرمني الذي رأى أنه وعى تاريخه وتمسك بتمايزه المجتمعي وقاوم الحكم العثماني وسياسته بعد عام 1909 في استيعاب الأقليات وتذويبها. فكان جان شرف يؤرخ بذلك لكل أقلية في الدولة العثمانية، وخاصة موارد لبنان. فكل من الأرمن والموارنة خضع لنظام الملة العثماني ولمحيطه الإسلامي، فنشبت الأولون بقضيتهم وقوميتهم التي تحولت إلى ما عرف بالقضية الأرمنية منذ عام 1878، مروراً بأحداث نهاية القرن التاسع عشر والحرب العالمية الأولى وطرح أزمته في المنتديات الدولية، فيما عانى الموارنة من ظروف مشابهة، الحرب الأهلية عام 1860، وتدويل جبل لبنان وفق ما عرف بنظام المتصرفية الذي حفظ خصوصيتهم، فكان هذا النظام المدخل لميلاد القومية اللبنانية عام 1920، بمضمونها الديني واتجاهها السياسي وخطها الحضاري.

أيها الحفل الكريم، يا أصدقاء جان شرف ومحبيه، قد لا يوافق البعض على كل ما جاء من نظريات ومقولات لجان شرف، لكنني أستطيع أن أجزم أنه يحظى باحترام الجميع وتقديرهم كمؤرخ وعالم وإنسان صادق في كلمته جريء في قلمه. لقد مكنته شخصيته الفردية وخلفه الحميد ومعشره الطيب من جمع أصدقاء حوله وفق تعددية فكرية وثقافية، فكان خير زميل ورفيق وصديق. لقد استخدمت في مداخلتي، أيها الحفل الكريم، صيغة الحاضر عند حديثي عن جان، ذلك لأنه رحل جسداً وبقي بيننا عبر فكره ومؤلفاته. فألى زوجته الحبيبة وإلى ابنه وشقيقه وشقيقاته وإلى الجامعة اللبنانية وجامعة الروح القدس وكل من أحبه وخير صداقته، أقول ليس وداعاً يا جان، ستبقى حياً فينا. أرقد بسلام أيها الصديق الحبيب حيث أنت، فالتعددية التي شغلتك طوال حياتك، أضحت تعدديات في هذا الزمن الرديء، في زمن الاستتباع والاستقواء وحروب الزواريب والأزقة.